

سلسلة

اللهم فوّ إيمانهم

[ ١ ]

# حديث الأئمة

تأليف: د. علي راشد

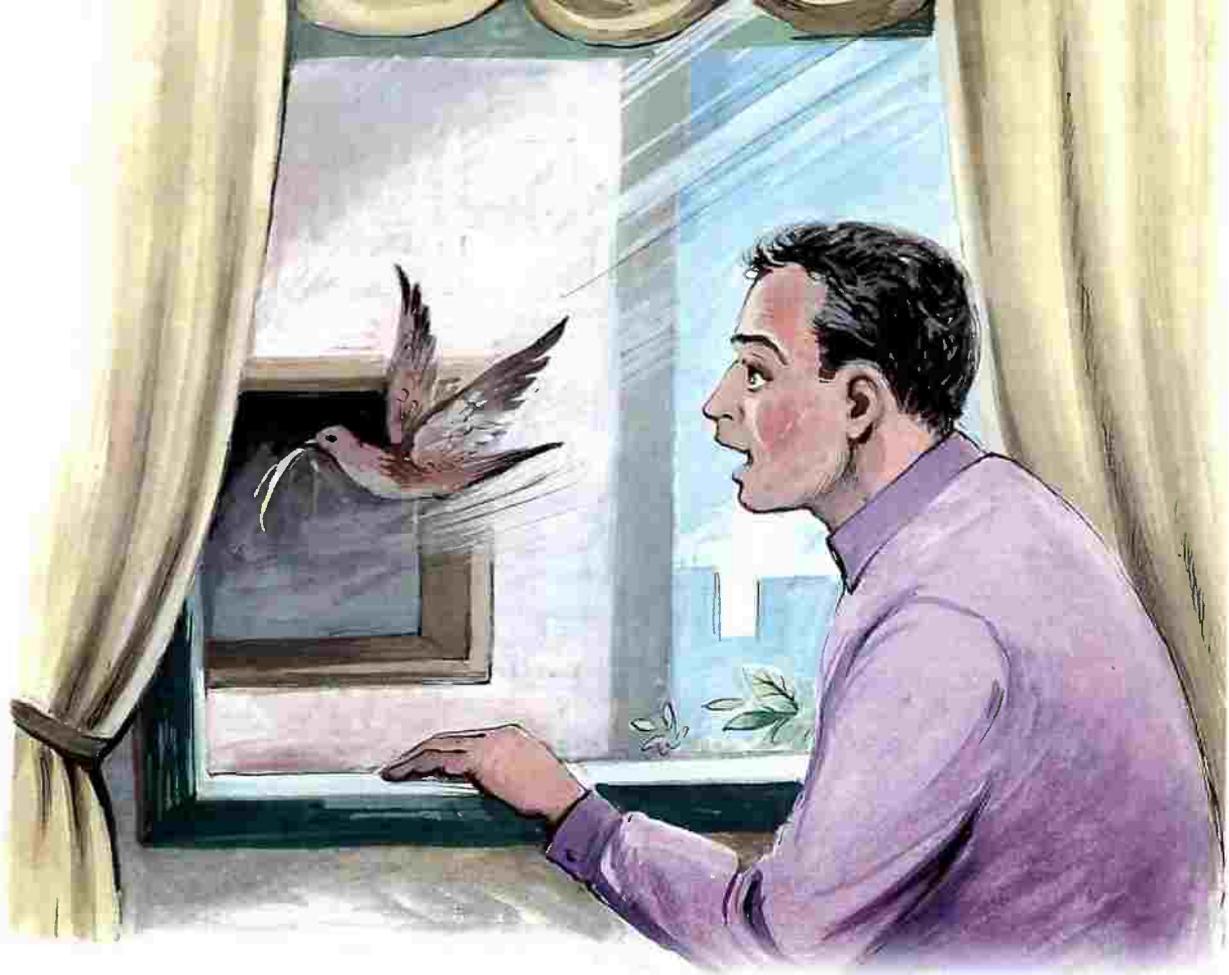
ريشة: أسامة أحمد نجيب



تضايقت كثيراً من هذا الضجيج والصخب والأصوات العالية المنبعثة من المبنى السكنى الذى يقومون بتشبيده بجوار منزلنا. فصوت آلة رفع المواد الثقيلة - التى تحمل الطوب الأسمنتى والحديد والخرسانة الى أعلى - ذو صرير مزعج للغاية. وأصوات دق المسامير داخل ألواح الخشب بطريقة مستمرة وعلى وتيرة واحدة، مجهدة لطيلة الأذن أيما إجهاد، أما كلام عمال البناء وهم يعملون فهو أشبه بالصراخ، وتيقنت أنها حرب معلنة على الأعصاب، وقتل للراحة والهدوء طوال اليوم، مع سبق الإصرار والتصدد.

ومرت الأيام ثقيلة وأنا أمنى نفسى بيوم ينتهى فيه البناء ويكتمل، لتضع الحرب أوزارها، ويعود الهدوء إلى المكنن، والراحة إلى النفس.. وفعلاً بعد عدة شهور قلبية جاء هذا اليوم، وانتهى البناء السكنى المجاور لمنزلنا، وتم طلاؤه باللون الأبيض الجميل.. ولستعد أصحابه لتأجير شققه التى تأخر بعض الوقت.

وفى أحد الأيام شاهدت من نافذة يمامة ودبابة تقف على فتحة صغيرة أعدت فى حجرة الطهى بالدور الثالث الموازى لشقتنا، والتى سيضع فيها الساكن المنتظر شفاطاً لطرد الروائح غير المرغوب فيها، والناجحة من طهى الأطعمة المختلفة. ووجدت نفسى أدقق النظر فى هذه اليمامة البديعة - دون أن تشعر بى - وأشبع النظر فى جسمها اللبيق الانسيابى، وریشها الذى يميل إلى اللون البنى الفاتح، مع بعض الريش ذات اللون الأزرق الفاتح مثل لون السماء الصافية.. وتمتمت فى نفسى: «سبحان الله العظيم».



وَفَجْأَةً طَارَتِ الْيَمَامَةُ، وَنَهَبَتْ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ، وَظَنَنْتُ أَنَّهَا لِحِظَةٍ عَابِرَةٌ وَأَنْتَهَتْ، فَنَهَبْتُ إِلَى  
حَالِي. وَيَعْدُ سَاعَةٌ مِنَ الزَّمَانِ لَمَحْتُ وَأَنَا فِي حُجْرَتِي نَضَّ الْيَمَامَةُ الْبَدِيعَةَ تَقْفُ فِي نَضِّ الْمَكَلَنِ،

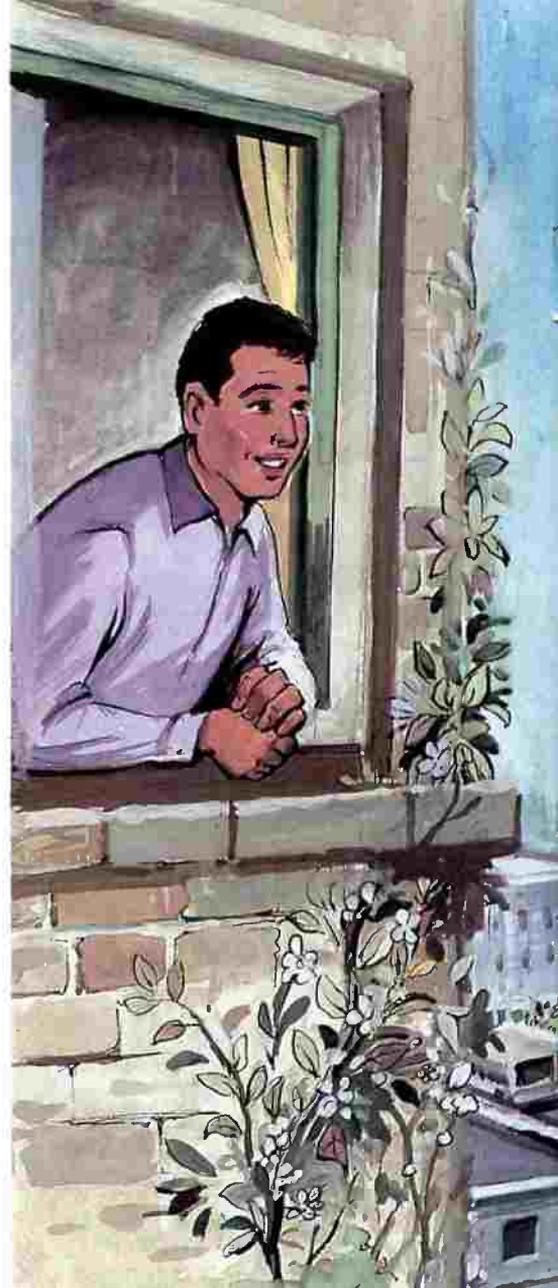
فَسَرَّتْ لِرؤَيْتِهَا مَرَّةً  
أُخْرَى، وَلَا حَظَّتْ أَنْ  
فِي مَنَقَارِهَا عُوداً  
خَفِيفاً مِنَ الْقَشِّ، كَمَا  
لَا حَظَّتْ أَنْ أَرْضِيَةَ  
الْفَتْحَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي  
تَقِفُ فِيهَا الْيَمَمَةُ بِهَا  
العَدِيدُ مِنْ أَعْوَادِ  
القَشِّ ذَاتِ اللُّونِ  
الْأَمْضَرِ النَّهْبِيِّ



وكانها تأتي بها من أشعة الشمس الذهبية. فتأكد لي أن هذه  
 اليمامة قد اختارت هذا المكنن الآمن الهادئ غير المأهول  
 بالسكن: لتبنى فيه عشها .. وانتابتنى حالة من الرضا  
 وأشراح الصدر لهذه الجارة الجديدة الوديعه التي سأسعد  
 برويتها كل يوم، والتي ستطمئن بها نفسي وأنا أسمعها في كل  
 صباح وهي تنلدي بصوتها المعهود:  
 «عبدوربكو .. عبدوربكو».

ومرت الأيام، وأنا بين الحين والآخر أراقب هذه اليمامة  
 البديعة، وخاصة بعد أن أكملت بناء عشها الرقيق من أعواد  
 القش الذهبية: ولأحظت أنها تكثر الجلوس في هذا العش  
 فتنبأت أنها بلضت، وهي تقوم بواجباتها نحو الرقاد على  
 البيض حيث الأمل في صغار يكملون المسيرة .. وصنق حسى  
 فما هي إلا أيام معدودة حتى سعدت ذات صباح بيمامتين  
 صغيرتين قد حلتا في العش الصغير، واليمامة الأم تختفي  
 قليلا ثم تعود تحمل بعض الغذاء في منقارها للصغيرتين ..  
 الأم هي الأم في كل الكائنات، هي منبع الرحمة وفيض  
 الحنن، وصنق أمير الشعراء أحمد شوقي عندما وصف رحمة  
 الرسول الكريم ﷺ بأنها رحمة الأم والأب، في قوله:  
 ولذا رحمت فأنست أم أو أب

هذان في الدنيا هما الرحماء





وكان خَوْفِي يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ مَجِيءِ جِيرَانِ يَسْتَأْجِرُونَ الشُّقَّةَ وَيُخْرِبُونَ الْعَمْسَ عَلَى أَصْحَابِهِ،  
وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ وَلَمْ يَحْطُ شَيْءٌ مِنْ زَوَائِدِ سَعَادَتِي وَأَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرَى الْيَمَامَتَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ تَكْبُرَانِ

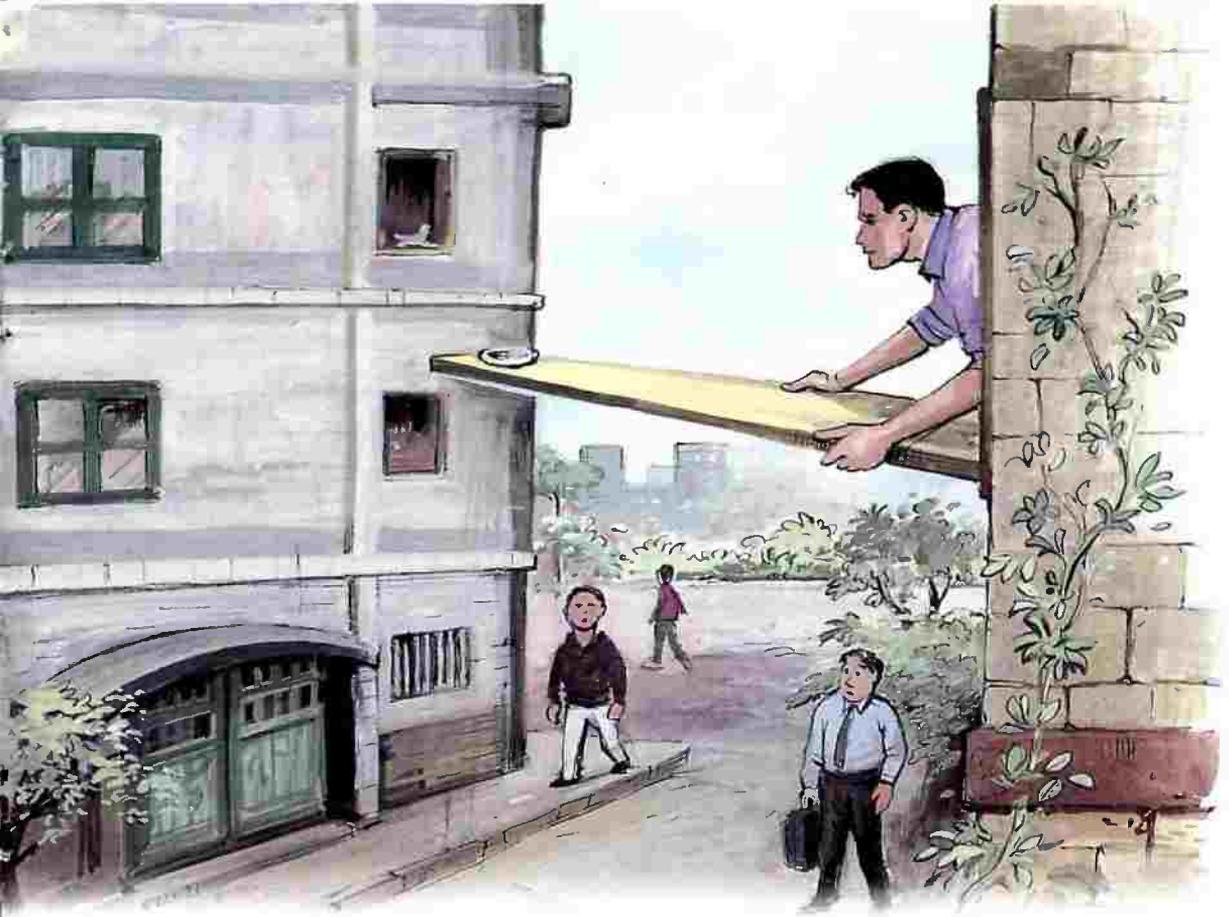
شيئا فشيئا، ويزداد نمو الرِّيش البديع المنظر وهو يكسو جسمهما الرقيق، حتى صارا في طور من النمو يسمح بتجريب الطيران والاعتماد على النفس في أمور الحياة. وفعلا لمحت في صباح أحد الأيام أن العش يضم فقط إحدى اليمامتين الصغيرتين، فاستنتجت أن أختها ذهبَت مع الأم للتدريب على الطيران. وعلى قدر ما سعت بهذا التغيير، وإن الحياة استضافت هاتين



اليمامتين الرقيقتين؛ على قدر ما شعرت بنوع من الأسى لقرب موعد الفراق بيني وبين أفراد هذه العائلة ..

ونظرت في اليوم التالي ناحية العش فوجدت أن الحال على ما هو عليه، فاليمامة الصغيرة بمفردها ولم تعد الأم أو الشقيقة، فانزعجت لهذا الوضع، ومما زاد من انزعاجي وقلقي أن اليمامة الصغيرة تضح متقارها وتعلقه، ووظنت أنها تفعل ذلك من شدة الجوع والعطش والوحدة، وهي في هذا السجن لا تستطيع أن تغادره بمفردها.

ومرت أربع وعشرون ساعة أخرى والوضع كما هو لم يتغير، وأصبت بقلق و خوف شديدين على تلك المخلوقة الضعيفة التي لا تعرف من الدنيا سوى أمها وشقيقتها وهذا العش الذي لا تستطيع منه فكাকা، ولقد ذهبَت الأم والشقيقة بلا عودة، فماذا عن مصير هذه المسكينة .. إنها لا تستطيع الطيران، ولا تستطيع التحرك من مكانها .. فلا طعام ولا شراب ولا مؤانسة.



وبدأت أفكر ماذا لو كانت قد أصيبت الأم بمكروه، ولم تستطع العودة هي وابنتها، كيف ستواجه هذه الصغيرة قدرها، وهي التي لم يمض على وجودها في هذه الدنيا سوى أيام قليلة؟  
ووجدت نفسي - ودين إرادتي - أتبنى أمر هذه المخلوقة، وأهتم لموضوعها اهتماماً شديداً،  
وبدأت أفكر جديداً، وأسأل نفسي: ماذا يجب على أن أفعل لهذه الأسيرة الصغيرة، وما ينبغي أن أقدمه

نحوها. إن أحداً في هذه الدنيا لا يشعرُ بها، أنا الوحيد الذي ألاحظها وأراقبها، وتشعرُ بما تعانيه من موقفٍ حرجٍ.. وبدأت في وضع بعض الحلول المحتملة لهذه المشكلة:

الحل الأول: أن أبحث عن صاحب البيت الجديد، وأجعله يفتح لي باب الشقة التي تقطنُ الإمامة الصغيرة إحدى فتحاتها الضيقة وأقدم لها ما يلزمها من طعام أو شراب.. ولكن أين أبحث عن صاحب هذا البيت؟ وهل أسلم من سحرته عندما يعلم حقيقة أمرى؟

الحل الثاني: أحاول الحصول على لوح خشبي طويل أقدم من خلاله الطعام والشراب لهذه الصغيرة من نافذتي القريبة من عثها. ولكن من أين لي بهذا اللوح الخشبي؟

لحل الثالث: أستعني رجال المظفي بسلمهم العالي لإيقاظ هذه الأسيرة الصغيرة، ولكن هل سيقتنع رجال المظفي بأهمية هذا العمل بجانب دورهم الأسلي في إطفاء الحرائق؟ وأصببت بإعياء شديد في تفكيري ولم أهدأ إلى الحل المنسب لهذه المشكلة.. واضطجعت على سريري وأنا أتمتم في نفسي.. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟.. إن هذه المسكينة لو هلكت فسوف أشعر بعقدة ذنب لا أعرف كيف سأخلص منها.

وما هي إلا لحظت حتى رحت في النوم، وغرقت في سبات عميق. ورايت فيما يرى النائم أنني أجلس نضس الجلسة في حجرتي وبجوار النافذة، وأنا أنظر إلى الإمامة الصغيرة وهي في أسرها تنظر ناحيتي.. وما هي إلا لحظت وإذا بالإمامة الصغيرة تطير نحوى وتقف أمامي على حافة النافذة دون خوف.. وفوجئت بها تلقى على السلام وقالت:

- السلام عليكم أيها الجار العزيز..

فرددت فرحاً بقدومها: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أيتها الإمامة الرقيقة.



قَالَتْ وَكَأَنَّهُا تَبْتَسِمُ لِي: أَشْكُرُكَ عَلَى اهْتِمَامِكَ بِي .. وَلَكِنْ لِمَ تَقْلِقُ عَلَيَّ كُلَّ هَذَا الْقَلْقُ؟  
فَقُلْتُ شَارِحًا: لَقَدْ تَرَكْتُكَ أُمَّكَ وَشَقِيقَتَكَ أَيُّهَا الصَّغِيرَةُ، فَأَصْبَحْتَ وَحِيدَةً .. لَا مَاءَ وَلَا طَعَامَ  
وَلَا أُنَيْسَ .. وَلَا أَحَدَ يَدْرِي بِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا أَنَا مِنْ هَذَا الْمَكَلَنِ وَأَنْتِ فِي عَشْكَ هَذَا لَا تَسْتَطِيعِينَ  
أَنْ تَبْرَحِيهِ .. أَلَيْسَ فِي هَذَا كُلِّهِ سَبَبٌ وَجِهُ كَيْ أَقْلِقَ عَلَيْكَ وَأَنْتِ فِي هَذِهِ الْمَحَنَةِ الْعَصِيَّةِ.

رَبَّتِ الْيَمَامَةَ بِصَوْتِ يَكْسُوهُ الْإِيمَانُ: لَا أَحَدَ يَدْرِي بِي!! أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ.. أَطَلَّكَ تَقْصِيدُ لَا

أَحَدَ يَدْرِي بِي مِنَ الْبَشَرِ .. أَوْ الطَّيْرِ..؟

قُلْتُ مُسْرِعًا وَقَدْ بَدَأَتْ أَفْهَمُ مَعْرَى كَلَامِهَا: نَعَمْ .. نَعَمْ .. أَقْصِدُ هَذَا..

قَالَتْ: إِذَا كَانَ لَا يَدْرِي بِي أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ أَوْ الطَّيْرِ سِوَاكَ، فَإِنَّ رَبَّ الْبَشَرِ وَرَبَّ الطَّيْرِ وَرَبَّكَ

يَدْرِي بِي وَيُرْعَانِي وَلَا يَسْأَلُنِي.. رَبِّي وَرَبُّكَ أَيُّهَا الْجَارُ الْعَزِيزُ.. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ

فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... ﴿٦٦﴾ (هُود) وَقَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

الْمَتِينِ ﴿٥٨﴾ (الذَّارِيَاتِ).

فَقُلْتُ فِي حَيَاءٍ: صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ.. سَبَّحَانَ اللَّهَ وَأَسْتَغْفِرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ.. أَقْلُبُكَ الصَّغِيرُ

يَا صَغِيرَتِي مِمَّتَلِّي بِكُلِّ هَذَا الْإِيمَانِ، وَأَدْرَكْتَ مَا غَلَبَ عَن قَلْبِي .. يَا سَبْحَانَ اللَّهِ.. وَلَكِنْ كَيْفَ وَصَلَتْ

إِلَيْكَ هَذِهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَذَلِكَ الْإِيمَانُ الرَّاسِخُ وَعَمْرُكَ فِي الدُّنْيَا لَيْسَ سِوَى أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ ..

رَبَّتِ الصَّغِيرَةَ الْمُؤْمِنَةَ بَرِيهَا فِي سَلَاةٍ وَعُدْوَانَةٍ: إِنَّهَا الْفِطْرَةُ يَا جَارِي الْعَزِيزُ .. الْفِطْرَةُ الَّتِي

فَطَرَنِي عَلَيْهَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .. سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى .. إِنَّنِي فِي مَعْظَمِ

الْأَوْقَاتِ أَصَلُّ لِلَّهِ شُكْرًا وَاسْتِحْبَاحًا حَمْدًا .. بَلْ إِنَّ أُمِّي دَائِمًا فِي كُلِّ صَبَاحٍ تَنْبِيهُ الطَّيْرِ وَالْبَشَرِ وَالشَّجَرِ

أَنْ يَنْكُرُوا دَائِمًا خَالِقَهُمُ الْعَظِيمَ وَيَعْبُدُوهُ.

قُلْتُ وَكَأَنَّنِي تَلْمِذٌ فِي مَدْرَسَةِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَةِ الرَّقِيقَةِ الْمُؤْمِنَةِ: نَعَمْ .. نَعَمْ .. فَنَحْنُ نَسْمَعُهَا دَائِمًا

وَأَمْتَالُهَا وَهِيَ تَرُدُّ فِي كُلِّ صَبَاحٍ: «اعْبُدُوا رَبَّكُمْ .. اعْبُدُوا رَبَّكُمْ».

ثُمَّ سَأَلْتُهَا فِي دَهْشَةٍ: وَلَكِنْ إِلَى مَتَى تَتْرَكُ أَمْلَكَ دُونَ طَعَامِ كُلِّ هَذِهِ الزَّمَنِيَّةِ؟



رَدَّتْ بِنَفْسِ السَّلَاسَةِ وَالْعُنُوبَةِ: أُمِّي لَمْ تَتْرَكْنِي .. فَهِيَ تَأْتِي فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ وَتُعْطِينِي مَا  
يَكْفِينِي مِنْ غَدَاءٍ مِنْ مَنْقَارِهَا الْحَنُونِ طَوَالَ الْيَوْمِ.

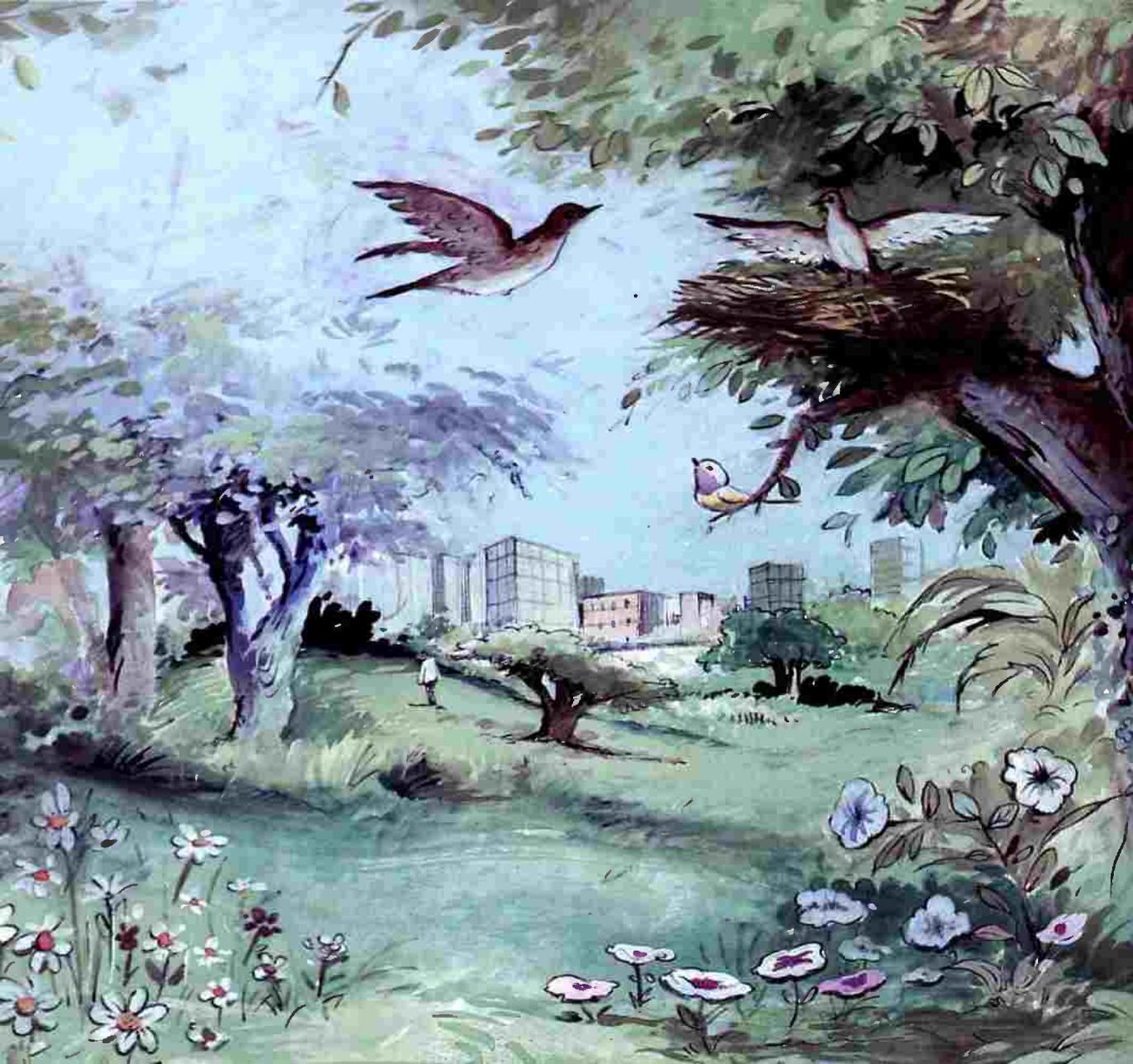
قُلْتُ: وَمَلَاذَا عَنْ أُخْتِكَ ..؟

قَالَتْ: أُخْتِي نَهَبَتْ مَعِ أُمِّي فِي عَشِّ جَدِيدٍ أَقَامَتْهُ أُمِّي، يَقَعُ عَلَى شَجَرَةٍ وَارِفَةٍ تَطُلُّ عَلَى الْوَادِي  
الْأَخْضَرِ فِي نَهَايَةِ الْمَدِينَةِ، وَعَلِمْتُ مِنْ أُمِّي أَنَّهَا قَدْ تَعَلَّمَتِ الطَّيْرَانِ بِتَوْجِيهِتِ مَنْ أَمْنَا الْعَزِيزَةَ.

قُلْتُ: هَذَا عَنْ أُخْتِكَ .. فَمَلَاذَا عَنْكَ أَنْتِ؟

قَالَتْ: فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ سَتَحْضُرُ أُمِّي، وَيَعِدُّ أَنْ تُعْطِيَنِي الْغَدَاءَ الْكَافِيَ سَوْفَ تَأْخُذْنِي إِلَى  
العَشِّ الْجَدِيدِ الَّذِي تَسْكُنُهُ أُخْتِي، لِأَتَعَلَّمَ الطَّيْرَانَ، وَأَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِي لِلْحِفَاضِ عَلَى حَيَاتِي، وَأَعْبُدُ  
اللَّهَ كَثِيرًا.

قُلْتُ فِي أَسَى: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّكَ سَتَرْحَلِينَ .. وَلَنْ أُرَاكَ أَبَدًا.





فَابْتَسَمْتَ ابْتِسَامَةً رَقِيقَةً وَقَالَتْ: لَا يَا جَارِي الْعَزِيزُ، فَبَعْدَ أَنْ أَتَعَلَّمَ الطَّيْرَانَ فِي الْهَوَاءِ وَأَعْتَمَدَ  
عَلَى نَفْسِي، وَاتَّحَمَلْتُ مَسْئُولِيَّةَ حَيَاتِي، فَسَوْفَ أَحْضَرُ إِلَيْ هَذَا الْمَكَانِ .. وَسَأَنْظُرُ إِلَيْكَ إِذَا كُنْتَ وَاقِفًا  
عِنْدَ هَذِهِ النَّافِذَةِ، وَأُحْيِيكَ.

وسعدت بالحديث مع هذه المخلوقة الرقيقة الصغيرة المؤمنة.. وما هي سوى لحظت حتى فارقتي اليمامة الصغيرة. وطاربت عائدة إلى مكانها في العش، وعندما استقرت عنده نظرت ناحيتي وهزرت رأسها وكأنها تحييني.

وفجأة استيقظت .. وعندما فتحت عيني تذكرت هذا الحلم كاملا.. وتذكرت كل كلمات اليمامة الصغيرة وانشرح صدرى.. وسعدت بهذا الحديث الإيماني .. وقمت من سريري ونهبت متلهفا إلى النفذة .. فرايتها .. رأيت جارتى الصغيرة وسميرة أحلامى .. وعندما لمحتني هزت رأسها، وقلت أنها تبتسم لى وتحييني، فهزرت رأسى أنا أيضا لأرد تحيتها وأنا أبتسم لها ابتسامة الجار لجاره والتلميذ لمعلمه.

وما هي سوى لحظت حتى رأيت اليمامة الأم وقد أتت لصغيرتها وأخذت تطعمها بمنقارها لحنون شيئا فشيئا حتى أكملت مهمتها .. وإذا بالأم تطير إلى حافة مبنى سكنى ليس بعيد .. وقبل أن تقوم اليمامة الصغيرة بأول محاولة لها فى الطيران، التفتت ناحيتي وكأنها تحييني، ثم ألقى بنفسها فى الهواء ورفرفت بجناحيها الرقيقتين فى الهواء، فطاربت ناحية أمها ووصلت إليها بسلام .. ونجحت الصغيرة فى أول تجربة لها فى الطيران بتقدير ممتاز. واقتربت الأم من صغيرتها وغرزت منقارها فى ريش ابنتها عدة مرات وكأنها تقبلها على نجاحها فى أول محاولة لها فى الطيران .. ثم طارت الأم مرة أخرى لمكان آخر ليس بعيد كذلك، ولحقتها ابنتها فى محاولة أخرى للطيران بنجاح أيضا .. واختفت الأم بعيدا، واختفت وراءها اليمامة الصغيرة ..



وَاجْتَا حَتَّى مَشْعَرِ السَّعَادَةِ وَمَشَاعِرِ الْأَسَى فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، فَقَدْ سَعَيْتَ بِنَجَاةِ هَذِهِ الْيَمَامَةِ  
الرَّقِيقَةِ وَحَدِيثِهَا فِي الْمَنَامِ الْمَلْفُوفِ بِلِصْلَفِ الْإِيمَانِ، وَأَيْضًا شَعُرْتُ بِالْأَسَى لِضَرَقِهَا .. وَبِتُكْلَمًا رَأَيْتُ  
أَيَّةَ يَمَامَةٍ عَلَى مَبْنَى قَرِيبٍ مِنِّي، أَوْ فِي أَثْنَاءِ سَيْرِي فِي الطَّرِيقِ أَتَسَاءَلُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: يَا تَرَى هَلْ  
هَذِهِ هِيَ جَلَّتِي السَّابِقَةُ الرَّقِيقَةُ الْمُؤْمِنَةُ أَمْ لَا؟ وَكُنْتُ دَائِمًا لَا أَجِدُ جَوَابًا لِتَسْأَلِي.  
اللَّهُمَّ قُوْ إِيْمَانِي.